

الكتاب المصري



ابريل ١٩٤٦

جمادى الاولى ١٣٦٥

مجلد ٢ — عدد ٧

الساحرة المسحورة

فتح الحب العابس لها باب الدنيا ، وفتح الحب الجاد لها باب الآخرة ، فسلكت بين هذين البابين طريقاً عسيرة بُنت فيها العقاب واكتنفتها المصاعب ، وملأتها الآلام ، ولم تخلُ مع ذلك من لذة قليلة ، وبهجة ضئيلة ، ومتاع عقلي متصل . فلما اختطفها الموت قدر الناس أنها قد أورثت بعض القلوب والعقول حزنًا عظيمًا وبؤسًا مميّزًا ، وأصبحت حديثًا من أحاديث التاريخ الادبي ستحفظه ذاكرة الأيام وقتنا يقصر أو يطول ، ثم يمسه النسيان قليلاً قليلاً حتى يمحوه في يوم قريب أو بعيد ، كما يحا كثيراً من الأحاديث لكثير من الناس في كثير من العصور وفي كثير من البلاد . ولسكن القرن التاسع عشر لم يكده يتقدم قليلاً حتى تبين أنها لم تترك للناس ذكراً نجس ، وإنما تركت لهم آية أدبية من أروع آيات الادب ، لافي وطنها الفرنسي وحده ، ولا في القرن الثامن عشر وحده ، بل في جميع الأوطان المتحضرة ، وفي جميع العصور التي عُنت فيها الإنسانية بالإنتاج الادبي الرفيع .

هذه هي مدموازيل دي لسبيناس التي أريد أن أحدثك عنها في هذا المقال : والتي ولدت سنة ١٧٣٢ وتوفيت سنة ١٧٧٦ . لنفرغ من ذكر الأرقام التي يظهر أن المؤرخ لا يكون مؤرخاً إلا إذا حفظها وحققها ، واستقصى ما يتصل بها من الأحداث والمخطوب .

واحب أن تعلم منذ الآن أنى لا أريد في هذا الفصل أن أكون مؤرخاً للأدب الفرنسى ، فلست من تاريخ هذا الأدب فى شىء ، وإنما قرأت عن هذه الآنسة فى بعض ما أقرأ فأعجبني حديثها ، فحاولت أن أتعلم هذا الحديث فزددت به إعجاباً ، وجملت لا أمضى فى استقصائه إلا دُفِعتُ إلى مزيد من التعمق حتى أنفقت فى ذلك شهراً وبعض شهر . ولعلى أغالط نفسى بعض المغالطة ؛ فقد أنفقت فى ذلك شهرين أو أكثر من شهرين ، ولم أفرغ منه بعد على كثرة الكتب والمجلات التى تجتمع بين يدي ، وتنتظر أن أفرغ لها ساعة من ليل أو ساعة من نهار . وأنا مع ذلك معرض عنها مُصِرٌّ على هذا الإعراض ؛ لأن أحداث هذه الآنسة ما زالت تدعونى ، وتلح فى الدعاء ، ولأن هذه الأحاديث لا تكاد تنقضى لا تنتظر منى إذن بحثاً عن التاريخ الأدبى الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، ولا تحقيقاً للحوادث ، ولا تحليلاً للنناح والمقدمات ؛ فما أحب أن أعرض لشيء من ذلك الآن ، وما أكره أن أعرض له فى يوم من الأيام ، ولعلى أن أخصص كتاباً أعرض فيه حياة هذه الآنسة عرضاً مفصلاً دقيقاً ، فأما فى هذا الفصل فليكن تحدى إليك عنها سهلاً سمحاً لا يكلفك ولا يكلفنى مشقة ولا عناء ، وإنما نرسل فيه النفوس على سجيبتها ، ونقف فيه أحياناً عند هذه العاطفة أو تلك وتعمق فيه أحياناً أخرى هذا الخاطر أو ذاك . وأنت تعلم من غير شك أن حياة الطبقة الممتازة من الفرنسيين فى النصف الأول من القرن الثامن عشر كانت قد دفعت إلى نوع من الحرية المرفقة يوشك أن يكون إباحة وإمعاناً فى المجون . دفعتها إلى ذلك أشياء كثيرة ، منها حاجة الفرنسيين إلى شىء من الهواء الطلق والتنفس الحر ، بعد أن ثقُلت عليهم تلك الحياة التى فرضها حكم لويس الرابع عشر عليهم ، نصف قرن أو أكثر من نصف قرن ، وكلفهم فيها كثيراً من الجهد وعرضهم فيها لكثير من الخطوب ، وحمَّلم فيها كثيراً من التضحيات . فلم يكدها هذا الملك العظيم ينتقل إلى الحياة الثانية حتى أحس الفرنسيون كأن عبثاً ثقيلاً جداً قد حط عن كواهلهم ، فأصبحوا أقدر على الحركة ، وأميل إلى النشاط ، وأسرع إلى الاستمتاع بالحياة فى غير تكلف ولا استخفاء . ومنها أن العقل الفرنسى كان قد اتصل بالنهضة العلمية التحريية كما تأثر بالفلسفة الحديثة التى تحررت من قيود أرسطاطاليس ، فتغير فيه كثير من القيم ، وعرف كثيراً مما كان ينكر ، وأنكر كثيراً مما كان يعرف ، ونظر إلى الحياة التقليدية نظرة

فيها كثير من السخرية والازدراء . ولم تلبث الحياة العملية أن دُفعت إلى الحرية التي دُفِع إليها العقل ، فأعلن الناس كثيراً مما كانوا يسرون ، وأظهروا كثيراً مما كانوا يخفون .

ومنها أن الأدب الفرنسي نفسه كان قد أخذ في هذا العصر يضيق بالقيود والقوانين التي فُرضت عليه أثناء القرن السابع عشر ، ورسمت له طرقاً لا ينبغي أن يعدوها ، ومذاهب لا ينبغي أن يخالف عن أمرها ، تخضعه بذلك لمذاهب القدماء من اليونانيين والرومانيين ، كما صورت في إيطاليا أو كما صورها الفرنسيون لأنفسهم في فرنسا نفسها أثناء القرن السادس عشر وفي أول القرن السابع عشر . فلم يكده عصر لويس الرابع عشر ينتهي أو يقارب الانتهاء حتى ظهر الخلاف ثم اشتد بين القدماء والمُحدَثين . وما من شك في أن هناك أسباباً أخرى كثيرة دفعت الطبقة الممتازة في فرنسا إلى استئناف هذه الحياة الجديدة الحرة المأجنة المتهاككة التي ظهرت قوية في عهد الوصاية ، وجعلت تزداد قوة وتسلطاً كلما تقدمت الأيام . وهذه الأسباب تتصل بالسياسة ، وتتصل بالاقتصاد ، وتتصل بالثقافة ، وتتصل بهذا المركز الممتاز الذي أُتيح لفرنسا في ذلك العصر وجعلها أعظم مركز من مراكز الحضارة في أوروبا . ثم تتصل آخر الأمر بهذه العلاقات القوية التي استوثقت بين الفرنسيين وبين البلاد المجاورة لهم ، فجعلوا يرحلون إلى هذه البلاد ويظهرون على ما فيها من ألوان الحياة ، كما جعل أهل هذه البلاد يرحلون إلى فرنسا ويظهرون على ما فيها من ألوان الحياة أيضاً . والواقع من الأمر على كل حال هو أن فرنسا دُفعت في هذا العصر إلى حياة جديدة تحرر فيها الممتازون من كثير جداً من قوانين الخُلُق والعرف والدين .

ومولد الآنسة التي أريد أن أتحدث عنها في هذا الفصل مظهر من مظاهر هذا الانحلال ، وأثر من آثاره في وقت واحد . فقد كانت أمها سليلة أسرة نبيلة غنية ، وكان زوجها الكونت دالبون سليل أسرة نبيلة غنية أيضاً . وكان هذان الزوجان قد نما بالحياة عصراً ورُزقا في أثناء ذلك الولد من الذكور والإناث . ولكن الأمر بينهما فسد — وما كان أكثر ما يفسد الأمر بين الأزواج ! — فاتصلت أسباب الزوجة برجل نبيل غني هو الكونت جسبار دى فيشى ، ورُزقت منه غلاما انتهت به الحياة إلى التربية الدينية ، وإلى أن أصبح رجلا من رجال الدين ، ورزقت منه طفلة هي هذه الآنسة التي نتخذها موضوعاً

لهذا الحديث . وقد عمّدت هذه الطفلة في كنيسة من كنائس ليون ، ولكن اسمى أوبوها قد اخترعا اختراعاً مخافة العار ، فلم تنسب إلى أمها ولا إلى أبيها ، وإنما ذكر للقسيس اسمان من أسماء الطبقة الوسطى العاملة . واطمأنت الأم إلى أن نس ابنتها قد أصبحت نفساً مسيحية . وما ينبغي أن نفترض أن الأم قد قصرت في ذات ابنتها أو أحببتها حباً فائزاً ، فقد كلفت الأم بابنتها كلفاً شديداً ، وعُنت بتربيتها عناية متصلة ، لم تستخف بشيء من ذلك ولم تحتط فيه ، وإنما ضمت ابنتها إليها ، وقامت على تاديبها وتثقيفها ، ومنحتها من حبها وعطفها مكاناً ممتازاً . ولم تقصّر إلا في شيء واحد هو هذا الذي يتصل بالحياة المدنية الرسمية ؛ فهي لم تلحقها بأبيها لأن ذلك لم يكن ممكناً ، ولم تلحقها بأمها لأنها لم ترد أن تعترف على نفسها بالإثم ، وإنما أعطتها اسماً من أسماء الأرض التي كانت ملكاً لأسرتها الخاصة ، فسميت جولي دي لسپيناس ، ومنحتها بعد ذلك كل ما كانت تملك لابناتها الشرعيين من الحب والعطف والإيثار .

على أن المشكلة لم تلبث أن ثارت غير مرة حين تقدمت السن بالفتاة . وربما كان أيسر الأشياء ، أو قل أيسر الخطوب التي عرضت لهذه الفتاة ، أمر مستقبلها حين تقدمت السن بأمها وأخذت تحس أنها تسعى إلى الموت مسرعة ، أو أن الموت يسعى إليها متمهلاً ، كما يتمهل دائماً في سعيه إلى الناس . فلم يكن من الممكن أن توث الفتاة أنها ، وتشارك في تركتها الضخمة . لم يكن ذلك ممكناً ؛ لأن الأم لم تستلحق ابنتها ، ولأن إخوة الفتاة لأنها يكرهون ذلك أشد الكره ويمنعون فيه أشد المنع . ولم يكن من الممكن أن توصى الأم لابنتها بشيء ذي خطر يحميها من عاديات الأيام ؛ فقد كانت الأسرة تراقب هذه الأم وتراقب تصرفها في ثروتها كلما دنت من الموت أو دنا الموت منها .

ولذلك لقيت الأم البائسة من التفكير في مستقبل ابنتها عناء شديداً ، وانهت آخر الأمر إلى أن أوصت لها بإيراد ضئيل ، إن لم يتح لها الترف وخفض العيش فإنه يعصمها من البؤس ، ويكفل لها حياة محتمة .

على أن الأم قد احتالت لإيثار ابنتها ببعض الخير ، فادخرت لها مقداراً من الذهب لا بأس به ، وأظهرت الفتاة على مكانه ، وأسرت إليها أن احتفظ لنفسك بهذا المال حين يدركني الموت . ولكن الفتاة كانت نقية النفس ، كريمة الطبع ، نزيهة الخلق ، محبة لإخوتها ، فلم تحتفظ لنفسها بشيء ، وإنما أدت إلى أخيها الأكبر كل

شيء . وسنتبين بعد حين أثر هذا كله فيما تعرضت له الفتاة في حياتها من الأحداث . على أن المشكلة الخطيرة التي عذبت الفتاة عذاباً شديداً ، وعذبت أمها عذاباً ليس أقل مما احتملت الفتاة هولاً ، ولعله أن يكون أعمق أثراً وأعظم نكراً ، هي هذه التي ثارت حين أحب الكونت جسيار دى فيشى أبو الفتاة الآنسة ديان دالبون أخت الفتاة لأمها ، فخطبها واتخذها لنفسه زوجاً . ولم تستطع الأم البائسة أن تمنع أو تقاوم ، لأسباب تتصل بالثروة والشرف والعلاقة بين أسر النبلاء . وقد كانت هذه الخطبة وما تبعها من الزواج أساساً للمأساة التي قتلت نفس الأم وعذبت نفس الفتاة عذاباً طويلاً ، وأثرت في الأدب الفرنسى كله آثاراً بعيدة المدى . وهذه المأساة التي لم يتخيلها أحد ولم ينشئها كاتب قديم أو حديث ، وإنما أنشأتها الظروف ومثلتها الحياة ، هذه المأساة ليست أقل روعة من أى مأساة أخرى تصوّرناها القدماء أو المحدثون .

فهنالك امرأة ترى عشيقها وأبا ابنها يخطب ابنتها الشرعية ويتزوجها . فدع كرامة هذه المرأة ودع شرفها ، وقف عند الصراع العنيف بين حب المرأة لخليتها وحبها لابنتها الشرعية ، وحبها لابنتها الأخرى ، وشعورها بهذا الإثم المنكر وما نشأ عنه من تعقيد بغيض في حياة أبنائها ، وعجزها عن أن تقول في هذا كله شيئاً ، أو أن تقاوم هذا كله بشيء ، وإذعانها لحكم القضاء الذى لا مردّ له ولا منصرف عنه ، وعذاب نفسها المتصل حين ترى ابنتها زوجاً لخليتها وزوجاً لابن أخويها .

ثم قدّر موقف الفتاة نفسها من هذا كله ؛ فقد كانت تشعر به شعوراً غامضاً ، ثم جعل هذا الشعور يتضح شيئاً فشيئاً حتى عرفته الفتاة معرفة دقيقة .

فقدّر موقفها من أبيها الذى أصبح لأختها زوجاً ، ثم قدّر موقفها حين ماتت أمها ، وحين انتقلت إلى قصر الكونت دى فيشى ، فعاشت بين أختها وأبيها . ثم قدّر موقفها حين رزقت أختها الولد فأصبح أبناء أختها لها إخوة قد منحهم الحياة أب واحد . وهي تعيش في هذا كله ، وتحتمل أثقال هذا كله ، وتألم من أعقاب هذا كله ، ولا تستطيع أن تجهر منه بشيء أو أن تنكر منه شيئاً ، أو أن تدفع عن نفسها من آثاره شيئاً .

قدّر هذا كله وحدثنى أيهما أبرع في التصور ، وأقدر على الابتكار ، وأمر في ابتداع المأساة : خيال الكتّاب والشعراء أم خيال الحوادث والظروف ؟

مهما يكن من شيء فقد أنقذت الفتاة في قصر أبيها وأختها أياماً طوالاً ثقلاً ،
 ثم أرادت الظروف أن يزداد بؤسها نكراً حين تقدم إخوتها وأبناء أختها في
 السن ، فقامت منهم مقام المريية المؤدبة . وقد كانت الفتاة كريمة النفس ، نبيلة
 القلب ، نقية الطبع ، فأجبت هؤلاء الأطفال حباً شديداً ، وأخلصت في تربيتهم
 وتأديبهم أتم الإخلاص وأمتنه . واقتضت ظروف الحياة في عام من الأعوام أن
 يرتحل الزوجان عن القصر في غيبة تطول بعض الشيء ، فقامت هذه الأخت
 الخالة من إختها مقام الام وشملتهم من العطف والرعاية والحنان بما حمل الأبوين
 على شكرها حين عادا إلى القصر . ولكن السعادة الخالصة لم تقدر للناس ،
 وازدراء المنافع المادية لم يُتَسَحَّ لكثير منهم ، والارتقاع عن الظلم والطغيان
 والبطر لم يقدر إلا لأفراد يُحْصَوْنَ بين حين وحين . فقد كان الزوجان يضيقان
 بهذه الفتاة على رعم وداعتها وسماحة نفسها ونقاء ضميرها . تضيق بها أختها
 لمكان هذه الأخوة الآتمة ، ولجرد التفكير في أن هذه الاخوة قد تثير اختلافاً
 حول المنافع المادية في يوم من الأيام . ويضيق بها أبوها لمكان هذه الآبوة
 الآتمة ، ولحرصه على المنافع المادية أيضاً بالقياس إلى نفسه وإلى أبنائه ، ولهذا
 الحرج الثقيل الذي لم يكن بدٌّ من أن يجده بين حين وحين كلما فكر في أن قصره
 يظل أختين إحداهما امرأته والاخرى ابنته . ولم تكن الفتاة أقل ضيقاً بهذه
 الحياة المنكرة من هذين الزوجين ، يدفعها إلى هذا الضيق شعورها بهذا الإثم
 الذي يحيط بها والذي لا تحمل أوزاره لأنها لم تقترف منه شيئاً ، وشعورها بهذا
 الحق المضيق والكرامة المهذرة بين قوم كان من الحق عليهم أن يشملوها بالحب
 والعطف والحنان . أبٌ من الحق عليه أن يبر ابنته وهو ينكرها ويظلمها .
 وأخت من الحق عليها أن تؤثر أختها بالمودة ، وهي تعقها وتستأثر من دونها
 بالخير كله ، وتصرف عنها قلب أبيها ، وتتخذها خادماً أو شيئاً يشبه الخادم . ومن
 أجل هذا كله أخذ الأمر يفسد شيئاً فشيئاً بين الزوجين وبين هذه الفتاة .
 وقد احتملت الفتاة ما استطاعت أن تحتمل ، فاما لم تجد إلى الصبر سبيلاً فكرت
 وقدّرت ، وأزمنت أن تخرج من هذا السجن البغيض .

وكان أمامها طريقان للخروج من هذا السجن : إحداهما يسيرة سهلة ولكنها
 بغيضة إلى نفسها أشد البغض مناقضة لطبعها أشد المناقضة ، وهي الطريق إلى
 الدير لتصبح راهبة . وما أكثر راهبات اللاتي دفعن إلى الدير لا تائراً بالدين

ولا تهاكأ على التقوى ، ولكن نفتن ظروف الاقتصاد ، أو ظروف الاجتماع عن الحياة العاملة ! ولكن الفتاة لم تكن تطبق التفكير في الدير ولا في الانقطاع للدين ؛ فقد كانت حياتها أقوى وأغزر وأخصب وأكثر بمرءة عن التصوف من أن تُعبدَها لهذا الانزواء الخامل الجذب في أعماق الدير . أما الطريق الثانية فلم تكن ميسرة ولا خالية من العقاب . فقد كانت الفتاة تودُّ لو استطاعت أن تستقل ، وتنعم بحياة حرة لا تخضع فيها لأحد . ولكن كيف السبيل إلى ذلك وإيرادها أضيق من أن يسع حاجاتها ومطالبها ! أليس من الممكن أن يعينها أخوها ذلك الذي يعمل ضابطاً في الجيش والذي أظهر حبساً لها وعظماً عليها ؟ فلتعتمد عليه إذن ولتكتب إليه . ولكنه يردُّ عليها مخيباً أملها ، لا بخلا ولا قسوة ، ولا تعمداً لا يذأها ، ولكن ظروفه لا تسمح له بأن يبذل لها المعونة التي ترجوها ، وهو من أجل ذلك يتقدم إليها في ألا تحاول هذا الاستقلال ولا تطمع فيه .

وفي أثناء ذلك تزداد الحياة ثقلاً في القصر ، ويزداد الخلاف نكراً بين الأختين . وتلم بالقصر زائرة ذات خطر ، تواسى الفتاة وتسليها أول الأمر ، وتجد لها مخرجاً من ضيقها وفرجاً من حرجها آخر الأمر ، وهذه الزائرة الخطيرة هي مدام دي ديفان .

ومدام دي ديفان ليست في حقيقة الأمر إلا عمة الفتاة ، نشأت كما نشأ أخوها في هذا القصر ثم اختلفت بهما أسباب العيش ، فتزوجت من المركز دي ديفان ، ثم فرقت بينهما الأحداث ، فسكنت في باريس وفي قصر الوصي على العرش مسالك الريبة والعبث ، واستتمعت بالحياة الماجنة وقتاً ما ، ثم ثابت إلى نفسها وراجعت أمرها وجددت سيرتها ، واتخذت لها رفيقاً خليلاً من رجال القضاء ، ومضت تدبر حياتها في حزم وجد حتى اكتسبت لنفسها في باريس مركزاً ممتازاً . ثم اتخذت لنفسها داراً ملحقة بدير من الأديار في باريس ، وجعلت تستقبل في هذه الدار أعلام الأدب والفلسفة والسياسة ، حتى أصبح « صالونها » من أهم المراكز الثقافية الممتازة في العاصمة الفرنسية . وقد توثقت الصلات بينها وبين الأعلام الممتازين في الحياة الفرنسية حتى أصبح اسمها علماً من الأعلام في الحياة الأدبية الفرنسية وفي التاريخ الأدبي الفرنسي بوجه عام . وقد جعلت كلما تقدمت بها السن تشعر بشيئين يدفعانها إلى التشاؤم دفماً شديداً : أحدهما مدى

وهو هذا الضعف الذي أخذ يصيب بصرها شيئاً فشيئاً ويصورها لنفسها ضرورة بعد وقت طويل أو قصير . والآخر معنوي وهو هذا البغض لأوضاع الحياة والشك في قيمتها والإنكار لهذه القيمة آخر الأمر ، حتى انتهت إلى مثل ما انتهى إليه أبو العلاء حين قال :

هذا جناه أبي عليّ (م) وما جنيت عليّ أحد

فقد كانت تقول إن ألبعض شيء في حياة الإنسان هو حياة الإنسان . ولذلك أحست شيئاً شديداً من الضيق ، والتمست إلى العزاء والشفاء وسائل مختلفة ، ومن بين هذه الوسائل زيارتها لقصر أخيها . وفي هذه الزيارة لقيت هذه الفتاة فكلفت بها أشد الكلف ، وأعجبت بها أعظم الإعجاب ، ثم لم تلبث أن رأت في هذه الفتاة رفيقاً لها في حياتها البائسة في باريس . فجعلت تتقرب إليها وتتلطف لها حتى ارتفعت بينهما الكلفة ، وأخذت الفتاة تبثها آلامها وأحزانها وتجدها عند التسلية والمواساة .

وقد عادت مدام دي ديفان إلى باريس ، وصممت الفتاة على ترك القصر ، وفارقت بعد خطوب ، وأوت إلى دير من الأديار في مدينة ليون ، لم تلتحق به ، وإنما اتخذت لنفسها مثنوى كما يأوى الناس إلى الفنادق الآن . وقد أقامت في هذا الدير وقتاً غير قصير ، ريثما تقنع أباها بحسن رأيها في الحياة المستقلة . وقد كان هذا الإقناع عسيراً ، جدت فيه الفتاة ، وجدت فيه مدام ديفان ، وتوسط فيه أحد الأساقفة ، وانتهت الفتاة بعد لآي إلى ما كانت تريد ، وظفرت مدام دي ديفان بعد مشقة بما كانت تمنى . ووصلت الفتاة ذات يوم إلى باريس واستقرت عند عمته أوصديقتها في الطابق الأعلى من الدار . وقد فتن المختلفون إلى صالون مدام دي ديفان بهذه الفتاة الوافدة من الأقاليم ، لا لجمالها فلم تكن ممتازة الجمال ، ولكن لظرفها وخفة روحها ورجاحة عقلها ، وسعة معرفتها وقدرتها على المشاركة في كل الأحاديث التي كانت تدور في هذه الاجتماعات .

وما أحب أن أفضل حياة الفتاة في هذه الدار ، فذلك شيء لا يتسع له هذا الحديث ، ولكنني ألاحظ أن إقامتها في هذه الدار لم تطل حتى صلت إليها بعض القلوب ، فوجدت في نفسها بعض الصدى ، ولكن في كثير من التحفظ

والاحتشام . صبا إليها قلب هذا القاضى الذى كان خليلاً لعمتها ، وصبا إليها قلب نبيل فرنسى أديب آخر ، وصبا إليها بنوع خاص قلب نبيل إيرلندى كان يختلف إلى الدار ، وهمت الفتاة أن تصبو إليه ، ولاحظت مدام دى ديفان ذلك فاصطنعت بعض العنف ، وطردت هذا الإيرلندى من دارها . ولم تلبث الفتاة أن ثابت إلى الرشد والحزم ، أو ثابت إليها الرشد والحزم . على أنها لقيت في صالون مدام دى ديفان فرنسيًا آخر لم تلبث أن صبت إليه كما صبا إليها ، وإذا حياتها تتغير تغيراً جوهريًا . والغريب من أمر هذا الفرنسى أنه كان يشبهها من بعض الوجوه ، ولعل هذا الشبه أن يكون له أثر في هذا الود .

هذا الفرنسى هو دالمبير ، والقراء يعرفون من غير شك المركز الممتاز الذى كان دالمبير يشغله في الحياة العقلية الفرنسية في ذلك الوقت . فقد كان دالمبير فيلسوفاً وأديباً ورياضياً ، وكان متفوقاً في هذا كله تفوق النبوغ ، وكانت الأندية الباريسية تحتصم فيما بينها أشد الاختصاص : أيها يظفر به ويحظى بزيارته . وكان دالمبير ، كما كانت فتاتنا ، قد ولد لأبوين نبيلين سنة ١٧١٧ ، ولكنه ولد مولداً غير شرعى ، كما ولدت الفتاة مولداً غير شرعى . وقد حظيت الفتاة بعطف أمها ، فأما دالمبير فقد فقد هذا العطف فقداً تاماً . وجده رئيس من رؤساء الشرطة عند كنيسة من الكنائس ، فالتقطه وعمده والتمس له المراضع خارج باريس .

فقدت الفتاة عطف أبيها ، وحظيت بعطف أمها ، وفقد دالمبير عطف أمه مدام دى تنسين ، ولكنه ظفر بعطف أبيه مسيو دى توش . فقد عاد هذا الرجل إلى باريس من بعض المهمات التى كان كلّف القيام بها ، فعرف مولد الطفل واطراحه والتقاط الشرطة له ، وجدّ حتى اهتدى إليه والتمس له المراضع في باريس نفسها ، ولم يستطع أن يستلحقه لأنه كان متزوجاً ، فقام على تربيته وأوصى له بما يكفل له حياة متواضعة .

وقد نشأ الصبي نشأة حسنة في حجر مرضعته الفقيرة ، فدرس حتى تخرّج في الآداب والفلسفة والطب والرياضيات ، وبرع في هذا كله حتى أصبح عالماً من أعلام الثقافة الفرنسية بل طابعا لهذه الثقافة في القرن الثامن عشر .

وكان الود متصلًا بينه وبين مدام دى ديفان ، حتى استأثرت به استثناءاً ،

قلم يكن يختلف إلا إلى صالونها ؛ أو لم يكن يواظب إلا على صالونها . وكانت تؤثره أشد الإيثار وتختصه بمودتها وبرها . ولكنه لقي عندها هذه الفتاة ، فصبا إليها وصبت إليه ، واتصل بينهما وذاً لم تلبث صاحبة الدار أن ارتابت فيه ، ثم ضاقت به ، ثم لامت ، ثم عنفت في اللوم ، فاضطر دالمبير إلى أن يسافر من باريس ويذهب إلى برلين ، مستجيباً لدعوة فردريك يلتمس في هذا السفر إرضاء مدام دي ديفان ، وسلواً عن مدموازيل دي لسبيناس . على أنه عاد إلى باريس ، فاذا قلبه ما زال كما كان حين ارتحل عنها ، وإذا قلب الفتاة ما زال كما كان حين فارقها .

على أن دالمبير إن انفرّد بحب الفتاة فهو لم ينفرّد بإكبارها والكلف بمحدثها ، وإنما شاركه في ذلك جماعة من الذين كانوا يختلفون إلى الدار ، فجعلوا يقدمون موعد زيارتهم ويصعدون إلى حيث كانت الفتاة تقيم ، فيتحدثون إليها ويسمعون منها ، حتى إذا كان موعد الاستقبال عند مدام دي ديفان في الساعة السادسة من المساء هبطوا إليها . وقد عرفت صاحبة الدار هذا الأمر ، فسخطت له أشد السخط، ونفت عن دارها مدموازيل دي لسبيناس كما نفت عن دارها أثيرها دالمبير . وأثيرت حرب شعواء بين السيدة والفتاة ، وانقسم الناس في أمرها انقساماً عظيماً ، كانت له آثاره في الأدب الفرنسى . والمهم هو أن أصدقاء الفتاة من الرجال والنساء منحوها كثيراً من العطف والود ، واتخذوا لها داراً غير بعيد من دار مدام دي ديفان ، فأقامت فيها وجعلت تستقبل أصدقاءها . وما هي إلا مدة قصيرة حتى أصبح صالونها ممتازاً في باريس ينافس صالون مدام دي ديفان منافسة خطيرة حقاً .

أقامت في الدار وحدها أول الأمر ، ولكن الظروف كانت تريد أن تجمع بينها وبين دالمبير في دار واحدة . وقد كان دالمبير يعيش عند مرضعه في بيتها الحقيق ، لم يخظر له أن يفارقها ، ولكنه مرض مرضاً شديداً فقامت على تمريره مدموازيل دي لسبيناس ولم تفارقه حتى أتبع له الشفاء .

ثم مرضت مدموازيل دي لسبيناس نفسها ، أصابها الجدري حتى عرض حياتها للخطر ، وقام على تمريرها دالمبير حتى أتبع لها الشفاء .

وكذلك قضت الظروف أن يعيش الصديقان في دار واحدة : تعيش الفتاة في الطابق الأدنى ، ويعيش الرجل في الطابق الأعلى ، وألف الناس منهما ذلك ، فلم

ينكروه ولم يضيّقوا به . والواقع أن هذا الأمر لم يكن فيه ما يدعو إلى ضيق أو إنكار ؛ فقد تحابّب الصديقان ولكن في غير ريبة . ومع أن الألسنة لم تمتنع عن التعريض والتلميح في أول الأمر ، فقد تبين أن الحب بين الصديقين لم ينزل قط عن مكان الحب الأفلاطوني النقي البريء .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدموازيل دي لسبيناس علماً من أعلام الحياة العقلية الفرنسية ، وأصبح صالونها مركزاً من مراكز الثقافة العليا في الأدب والفلسفة والفن والسياسة والاجتماع . يختلف إليه مرات في كل أسبوع زعماء الحياة العقلية في باريس ، فيحاورون ويجادلون ويقررون أيضاً . ويختلف إليه في الوقت نفسه أعلام الأجانب الذين يعمرون بباريس أو يقيمون فيها إقامة متصلة . من هؤلاء الأجانب أدباء وساسة وفلاسفة ممتازون ، من الإنجليز ، والإيطاليين ، والأسبانيين ، والألمانيين أيضاً . ثم كانت مدموازيل دي لسبيناس وصديقتها الدلمبير يغشيان الصالونات المختلفة في باريس عند مدام جوفران ومام دي شوازل ومام نيكر ومام هلثسيوس ومام دي لكسمبورج ، وعند طائفة أخرى من السيدات اللاتي كن يتخذن هذه الصالونات مراكز للحياة العقلية القوية الخصبية .

في هذا الوقت لقيت مدموازيل دي لسبيناس في أحد هذه الصالونات فتى أسبانياً ممتازاً امتيازاً أجمعت عليه الصفوة الباريسية كلها ، وهو مسيو دي مورا . كان ضابطاً في الجيش الأسباني ، وكان أبوه سفيراً في باريس . لم تكدمدموازيل دي لسبيناس تلتقي هذا الفتى حتى صَبَتْ إليه ، ولم يكدم هذا اللقاء يتكرر حتى وقع حبه في قلبها كما وقع حبه في قلبه . ولم يكن هذا الحب عابراً ولا سطحياً ، وإنما كان من هذا الحب الذي لا يكاد يبلغ القلوب حتى يستقر فيها ويستأثر بها ويملك عليها كل شيء ، ويصبح فتنة لا تجرد النفوس عنه منصرفاً ، ومحنة لا تجرد القلوب إلى التخلص منه سبيلاً . وقد كان هذا الحب محنة بأدق معاني هذه الكلمة ، سَعِد به العاشقان سعادة تعجز النفوس عن احتمالها وتقتصر الألسنة عن وصفها ، وشقى به العاشقان شقاء كان سيئهما إلى الموت . كان حباً نقيّاً بمعناً في النقاء ، ولكنه على ذلك لم يكتف بنقاؤه الأفلاطوني وإنما حاول أن يسلك طريقه الشرعية إلى الرضا ، فهمّ العاشقان أن يقترنا ، وقامت دون أمنيتهما هذه أهوال ثقالة . أهوال مختلفة ، بعضها جاء من اختلاف

الساحرة المسحورة

الطبقة ، فقد كان الفتى من أرفع الأسر الأسبانية منزلة وأعلاها مكانة وأعرفها نسباً وأعظمها ثروة وأوسعها جاهاً ونفوذاً . وكانت مدموازيل دى لسبيناس كما علمت لا أسرة لها وليس لها نسب إلا هذا الذى يمتز به المتنبى فى كثير من شعره ، والذى لا يرجع إلى الأسرة وما يكون لها من مجد قديم ، وإنما يرجع إلى الشخص وما يستحدث لنفسه من المجد .

فليس غريباً أن تضيق الأسرة الأسبانية بفكرة الزواج هذه وتراها ضلالاً وانحرافاً عن الجادة ، وتقيم فى سبيلها العقاب التى لا يمكن تذليلها . وليس غريباً أن يضم الفتى على بلوغ ما أراد ، وأن تثار حرب عنيفة منكرة خفية بينه وبين أبويه . ولو أتيحت الصحة للفتى وواتته الظروف لكان من الممكن أن ينتصر آخر الأمر ، فقد كان حازماً عازماً شديد المضاء ، ولكن الأيام والحوادث كانت أشد منه حزمًا وعزمًا وأبعد منه مضاء . أغرت به الأسرة وأغرت به المرض أيضاً ؛ فقاوم الأسرة ما وسعته المقاومة وكاد ينتصر عليها ، وقاوم المرض ما وسعته المقاومة ، ولكن المرض انتصر عليه وهو فى طريقه إلى باريس عائداً إليها من وطنه ليتم ما صمم عليه من الزواج .

ولم تصل إلينا الرسائل التى تبادلها العاشقان ، وقد كانت كثيرة ما فى ذلك شك ، فقد كتب الفتى إلى صاحبتة اثنتين وعشرين رسالة فى عشرة أيام ، ولم يكن بعيداً عنها ، وإنما كان قريباً منها فى ضاحية من ضواحي باريس . وإنما عرفنا أخبار هذا العشق وخطوبه من رسائل أخرى لمدموازيل دى لسبيناس ومن رسائل تبودلت بين دالمبير وأسرة الفتى فى مدريد .

على أن أمور مدموازيل دى لسبيناس تعقدت فجأة تعقداً غريباً هو الذى أظهر الأدب على شخصيتها هذه الفذة وأورثه فيها هذا الرفيع . كان عاشقها فى مدريد يقاوم أسرته ويقاوم علته ، ويتخذ من حبه القوى أداة ناجعة لهذه المقاومة . وكانت هى فى باريس تنتظر ، سعيدة بالانتظار شقية به أيضاً ، مشفقة أشد الإشفاق على حبيبها من هذه العلة المرهقة . ولكنها أجابت ذات يوم مع دالمبير إلى ولية من الولايم فى ضاحية من ضواحي باريس ، فى قصر فخم تحيط به طبيعة رائعة قد نسقتها الحضارة والفن أحسن تنسيق ، جمعت فيها بين ترف المدينة وسذاجة الريف . فى هذا القصر لقيت مدموازيل دى لسبيناس فتى فرنسياً نبيلاً كان الناس قد أخذوا يكبرونه ويعظمون شأنه لأنه أظهر تفوقاً وامتياناً .

كان ضابطاً في الجيش ، وكان قد أصدر كتاباً في فن الحرب اعجب به المختصون وفتن به المثقفون عامة ، وقيل إن بونابرت كان يصحب هذا الكتاب بعد ذلك في جميع مواقعه الحربية الكبرى . وكان هذا الفتى حلو الحديث راجح العقل حسن المحضر لطيف المدخل ، قد جمع إلى براعته في فنه العسكري ظرفاً فاتناً وثقافة واسعة وأدباً رقيقاً ، حتى إن كثيراً من الأدباء والفلاسفة الفرنسيين كانوا ينوطون به آمالاً عراضاً ، ويعتقدون أن مسيو دى جيبيير سيكون البطل الذى ينقذ فرنسا في يوم من الأيام .

لقيت مدموازيل دى لسبيناس هذا الفتى في ذلك القصر ، فتحدثت إليه وسمعت منه . وأكبر الظن أنها سايرته غير متكلفة في بعض هذه الحدائق الرائعة ، فوق من نفسها وأعجبها حديثه وظرفه وثقافته . فلما عادت إلى باريس قرأت كتابه فازداد إعجابها به وإكبارها له ، ولم تملك نفسها فكتبت إليه تثنى على هذا الكتاب . وأقبل هو يزورها ليشكر لها هذا الثناء . ولم ينصرف من هذه الزيارة حتى ترك في قلب مدموازيل دى لسبيناس جذوة لا سبيل إلى إطفائها . وأصحاب علم النفس والمتعمقون لدقائق الحب وما يثير في القلوب من العواطف والأهواء يستطيعون أن يجيبوا على هذا السؤال : كيف اجتمع السيفان في غمدا ! وكيف ائتلف الحبان في قلب ! وكيف قامت الجذوة القديمة التي أوقدها الفتى الأسباني منذ سنين إلى جانب الجذوة الحديثة التي أوقدها الفتى الفرنسي منذ أيام ؟ وقد أجاب جوت على هذا السؤال حين قال في بعض كتبه : « إن القلب الإنساني كبير يسع كل شيء وضعيف يحطمه أيسر شيء . » وقد اختلف الكتاب اختلافاً شديداً جداً في حل هذه المشكلة . وما يعنيني من اختلافهم شيء ، فأنا لا أكتب حديثاً في الحب ، وإنما أقص قصة امرأة جمعت في قلبها بين حبين .

فهي لم تسلم عن فتاها الأسباني ، وإنما ازدادت به تعلقاً وبمجه استمساكاً . ومن الحق أنها دافعت الحب الجديد عن نفسها فلم تستطع ، ثم خادعت نفسها عن هذا الحب فصورته على أنه مودة فلم يغبن الخداع عنها شيئاً ، ثم وقفت حائرة ممزقة بين هذين الحبين : نصف قلبها في أسبانيا ، ونصف قلبها الآخر في باريس . أستغفر الله ! بل غرب نصف قلبها إلى أسبانيا وشرق نصفه الآخر إلى ألمانيا ، فقد سافر الكونت دى جيبيير إلى ألمانيا والنمسا وكاد يسافر إلى روسيا ، فتبعه قلب

مدموازيل دى لسپيناس أو قل نصف قلبها ، أو قل إن شئت إنها جعلت ترسل إليه قلبها أقساطا منجّمة في هذه الكتب التي كانت تكتبها إليه وقد علمت مدموازيل دى لسپيناس أن قلب صاحبها الفرنسي لم يكن خالصاً وأنه كان يجب سيدة نبيلة أخرى ، وأنه لم يكن يبخل على نفسه باجتناء زهرات الحب واقتطاف ثمرته حين كان ذلك يتاح له بين حين وحين . علمت ذلك فذاقت مرارة الغيرة واصطلت بناراها المحرقة ، وعذبت نفسها وعذبت صاحبها في ذلك عذاباً شديداً ، واستيقنت منذ أحست هذه الغيرة أن قلبها لاينعم بالمودة الهادئة وإنما يشقى بالحب العنيف .

وما زالت تعذب نفسها وتعذب الفتى حتى استخلصته أو ظنت انها استخلصته لنفسها من دون النساء . وقد عاد الفتى الفرنسي إلى باريس ، وأخبر المرض عودة الفتى الأسباني إليها ، فكانت تلتقي صاحبها الفرنسي في كل يوم تقول له ويقول لها ، والأمر بينهما مستقيم لايتجاوزالنقاء الأفلاطوني البريء . والناس يعلمون أنها تكبره وتؤثره بالود ، وأنه يكبرها ويؤثرها بالإجلال . والناس يعرفون ذلك ولا ينكرونه . حتى كان يوم من أيام فبراير سنة ١٧٧٢ ذهب الصديقان فيه إلى الملعب وسمعا فيه الموسيقى ، وكان للموسيقى في نفسها أثر أرى أثر ، فلم يتفرقا حتى شربا من تلك الكأس التي لا يعرف الناس أتقدم لشاربيها وحيقاً أم حريقاً ، كما يقول ابن الرومي ، أتقدم إليهم شراباً صفوفاً أم سمّاً زعافاً . مهما يكن من شيء فقد كان قلب مدموازيل دى لسپيناس ينقسم نصفين : نصف لحب الفتى الأسباني ونصف لحب الفتى الفرنسي . فقد أصبح منذ ذلك اليوم ينقسم أثلاثاً ، ولا يخلص للحب وحده وإنما يقوم الندم فيه بين هذين الحبين مقاماً غريباً ، يشتد ويقسو حتى يخيل إليها أنها آئمة مجرمة قد خانت الرجل الذي تحبه وحده وتؤثره بحبها كله من دون الناس . ثم يضعف ويتضاءل حتى ينسبها نفسها وينسبها كل شيء ويقدمها ضحية متهاكمة متضائلة إلى هذا الحب الآخر الجامح الذي لايعرف قصداً ولا اعتدالا . وقد أرادت الحياة أن تمنع في القسوة حتى تبلغ بها أقصى غاياتها ، وأن تجعل كل شيء من أمر هذه المرأة غريباً حقاً . ففي نفس اليوم الذي أتمت فيه اشتدت العلة على صاحبها الأسباني حتى بلغت حد الازمة المهلكة . وصلت إليها الأنباء بذلك بعدأيام ، فسجلته وسجلت معه ندماً ما أعرف أنه صور في أدب من الآداب كما صور في رسائل مدموازيل

دى لسبيناس . ثم جاءت الانباء بأن صاحبها الاسبانى قدمات فى طريقه إلى باريس ؛ فلم تشكّ فى أن خياتها له قد قتلته وإن لم يعلم من أمر هذه الحيانة شيئاً وقد همت ان تقتل نفسها ، ولكن صاحبها الفرنسى ردها عن الموت أو رد عنها الموت . فعاشت بعد ذلك عيشة رائعة مروعة حقاً : تحب كما لم يجب أحد قط ، وتندم كما لم يندم أحد قط ، وتصور ذلك فى رسائل لم يكتب أحد مثلها قط . بعض هذه الرسائل تكتب إلى عاشقها الحى ، وبعض هذه الرسائل تكتب إلى عاشقها الذى مات . وهى فى أثناء ذلك تعيش عيشتها المألوفة ، تستقبل الفلاسفة والأدباء والساسة وتزورهم ، وتغشى الصالونات وتختلف إلى ملاعب التمثيل والموسيقى ، وتسعى فى أن ينتخب فلان أو فلان عضواً فى المجمع اللغوى الفرنسى ، وتسعى فى أن يحقق هذا الوزير أو ذلك لهذا الصديق أو ذلك هذا الأمل أو ذاك ، وتشارك فى النقد الأدبى وفى النقد السياسى وفى كل ما يشارك فيه الأدباء والساسة والفلاسفة ، وتكتب إلى أخيها من أختها وأبيها ، وتعنى بأمره عند السلطان وتظهره مع امرأته على باريس .

وتكتب فى أثناء هذا كله إلى عاشقها الفرنسى ، أو قل ترسل إلى هذا العاشق قطعاً من النار المدمرة التى لا تبقى ولا تذر ، وقطعاً من النسيم الحلو الذى يملأ القلوب أمناً وسلاماً وغبطة وابتهاجاً . ترسل إليه هذا الكتاب القصير الذى أعجب به سانت بوف والذى لا تؤرخه بيوم كذا من شهر كذا من عام كذا ، وإنما تؤرخه بكل لحظة من لحظات حياتها : «أيها الصديق إنى ألم ، إنى أحبك ، إنى أنتظرك» . وأغرب من هذا كله أن الناس لا يعلمون من أمر هذا الحب شيئاً ، وأن الدالمير الذى يعيش معها فى دار واحدة لا يعلم من أمر هذا الحب شيئاً ، وإنما يحس فتورها عنه ولا يجد لهذا الفتور تعليلاً .

وقد قضت ظروف الحياة على الكونت دى جيير أن يتزوج ، فتألمت مدموازيل دى لسبيناس وثارَت وغضبت ، ثم أذعنت لأنها لم تكن تملك إلا الإذعان ، وقد عاهدت نفسها وعاهدت صاحبها على أن تحترم هذا الزواج وتحترم الفضيلة التى ينبغى أن تظله وتسيطر عليه . وقد وفّت بالعهد واحتملت فى هذا الوفاء أهوالاً ثقالاً ، وهم صاحبها ذات ليلة أن يخرج عن هذا الوفاء النقي ، كان يقرأ معها بعض رسائلها إليه ، فصبا قلبه وثارَت نفسه وجمحت عواطفه وطغت غرائزه ، ولكنها ردتة ردّاً منكراً عنيفاً ، فعاد إلى داره متهاكاً متخاذلاً ، وكتب إليها من

ساعته معتذراً نادماً ، ووصل إليها كتابه فاذا هي غارقة في دموعها لأنها كلفت نفسها من الجهد فوق ما تطيق . والفتى محب لزوجته ، مستبق صلته مع خليلته الأولى في غير إنهم كما يقال . ولكن مدموازيل دى لسبيناس تكتب إليه : « ضعنى حيث شئت من حبك القديم ومن حبك الجديد ؛ فلن اقول شيئاً ، ولكن اجتهد في ألا تنزلنى منزلة مخزية فانى لا أستحق هذا الخزى » .

وقد أخذت العلة تسعى إلى مدموازيل دى لسبيناس ، وأخذت هي تستبطن الموت ، حتى إذا تقدمت العلة فغيرت من شكلها ومن جسمها أوت إلى غرفتها ثم إلى سريرها ، ثم أبت أن تلتقى صاحبها لأنها لم ترد أن يراها وقد تغير شكلها على غير ما يهوى .

أبت أن تلتقاه ، ولكنها مضت في الكتابة إليه إلى آخر لحظة . كان يعودها مرات في كل يوم فتعلم بمكانه من دارها ، وتسعى الكتب بينها وبينه ، حتى كان آخر شيء كتبتة وهي في آخر لحظة من لحظات الدنيا وأول لحظة من لحظات الآخرة كتاب حمل إليه ، ولم يكدي يبلغه حتى كانت مُحْتَضِرَةً تعالج سكرات الموت . وقد ماتت مدموازيل دى لسبيناس ومضت على موتها أعوام واعوام ، ومات الكونت دى جيبير أيضاً ، ثم عرف الناس في أول القرن الماضى وعرف من بقى من أصدقائها أمر ذلك الحب حين نشرت رسائلها إلى الكونت دى جيبير . وكم كنت أحب أن أتحدث عن هذه الرسائل ، ولكنى لم أكتب هذا الفصل إلا لأغرى القراء بقراءتها في أصلها الفرنسى وبترجمتها إلى اللغة العربية . فما أعرف أن أدباً من الآداب الحية أو القديمة قد صورَّ الحب والندم والألم والغيرة كما صورتها مدموازيل دى لسبيناس .

ط صبي